اتجاهات الدارسين في بيان الإعجاز القرآني

د. عبد العزيز خليفة القماطي ـ جامعة الزاوية – كلية التربية الزاوية

الملخص :

اهتم الدارسون العرب بالقرآن الكريم وبدراسته وبيان إعجازه، ووضعوا لذلك دراسات ومؤلفات تكشف عن نظرتهم إلى الموضوع، والتي قد تصل إلى حد التباين لتفسير الإعجاز الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالتحدي والمعارضة "بمثل القرآن، ثم بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس إلا النظم والأسلوب، وهم أهل الله ولن تضيف أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور. ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع.

Abstract :

Arab scholars have been interested in the Holy Qur'an, studying it and demonstrating its miraculousness, and for this they put studies and literature that reveal their view of the subject, which may reach the point of discrepancy to explain the miraculousness, which is closely related to the challenge and opposition "like the Qur'an, and then with ten Surahs like it are fabrications in which they do not adhere to wisdom or truth, and not Except for systems and style, and they are the people of God, and their legends and sciences will not add to them that nineteen chapters.

المقدمة:

تناولت في هذا البحث اتجاهات الدارسين في بيان الإعجاز القرآني وقد صنفته إلى ثلاثة اتجاهات حيث تطرق البحث في الاتجاه الأول الاتجاه القائل بالصرفة، والاتجاه الثاني: الاتجاه القائل بأن القرآن معجز ببلاغته ، أما الاتجاه الثالث الاتجاه القائل بأن القرآن معجز بنظمه.

أولا ـ مفهوم الإعجاز البياني للقرآن الكريم :

.البيان، الإعجاز، لغة واصطلاحا :

تعريف البيان لغة: هو الكشـف والظهور، يقال بان الشـيء أي اتضـح، ومنه قوله تعالى: (**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ**)[1] أي : واضـحات النور. وقيل البيان: الفصاحة واللسن، ويُقال: كلام بين: أي فصيح

تعريف البيان اصطلاحا: البيان: هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وقيل: هو اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل.

أما تعريف الإعجاز البياني:

يقصـد بالإعجاز البياني أن تتلاءم ألفاظ الآيات مع معانيها تلاؤما محكما في الدلالة والموقف والسياق، وبشكل معجز يتحدى بنظمها البشرية كلها أن يأتوا بمثله.

المقصـود بالإعجاز البياني في القرآن الكريم: إنّ المقصـود بالإعجاز البياني في القرآن الكريم يتضح لنا من خلال النقاط الآتية:

1 - إظهار عجز البشر بشكل مستمر عن الإتيان بمثل هذا القرآن؛ لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وألفاظها التي تحمل المعاني.

2 الكشـف عن القصـور العقلي للبشـر عن إدراك جميع معاني الأشـياء التي حملتها الألفاظ.

3 - عدم اكتمال معرفة البشـر، وأن علومهم مهما تعاظمت فهي قاصـرة، وأن فوقهم عليم لا يحيط بعلمه أحد .

4 تصديق رسالة النبي وأنه من عند الله الكريم المتعال .

تعريف الإعجاز لغة: كلمة الإعجاز لغة من (أعجز)، وأعجزه الشـيء؛ إذ لم يتمكن من مجاراته ومنه معجزة أي شـيء خارق للعادة يأتي على يد الأنبياء عليهم السـلام، والمصطلح معجزة، يستخدم لكل حالة صعبة المنال إذا تم تحقيقها، وكذلك إعجاز.

حتدت الكثير من المعاجم العربية مفهوم الإعجاز تحديدا معجميا، فابن منظور على سـبيل المثال، يقول: "عجز عن الأمر يعجز، وعجز عجزا، ويقال أعجزت فلانا إذا ألفيته عاجزا وفي الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والليس.

وقوله تعالى: (**وَالذِينَ سَـعَوْاْ فِـي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ**)[2] ، وقال الزجاج معناه ظانين أنهم يعجزوننا، وقرأت معجزين وتأويلها أنهم يعجزون من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويثبطونهم عنه وعن الإيمان بالآيات، وفي التنزيل العزيز: "وما أنتم بمعجزين في

الأرض ولا في السماء قال ومعنى الإعجاز الفوت والسّبق، وقال : أعجزني فلان إذا فاتني، ومنه قول الأعشى:

فذاك ولم يعجز من الموت ريه ولكن أتاه الموت لا يتأنق[3] .

حُدد هذا المفهوم تحديداً لغوياً، فرجع ابن منظور إلى جذره اللغوي ليقف على دلالته اللغوية، ولكنه في هذا التحديد لم يستطع الفكاك من الدلالة الاصطلاحية، فاضطر إلى العودة إلى سياق الحال رابطاً المفهوم بالسياق الديني، واستشهد بالحديث الشريف وبالقرآن الكريم ليشير إلى دلالات الإعجاز السياقية.

ثم انتقل في الأخير إلى دلالة أخرى فكان معنى الإعجاز الفوت والسبق.

تغليب الدلالة الدينية على الأنواع الأخرى مرده أن ابن منظور متأخر نوعاً ما، ولهذا فقد غلبت في عصره هذه الذلالة الاصطلاحية؛ لأنها كانت الأكثر شيوعاً وذيوعاً، والمعجم لا يقيد إلا المعنى الأكثر استعمالا وانتشارا لدى الجمهور.

وأما الفيروز أبادي فقال: "العجز مثلثة وكندس وكتف مؤخر الشيء... والعجز والمعجز والمعجزة وتفتح جيمها، والعجزان محركة، والعجوز بالضم، الضعف، والفعل كضرب وسمع فهو عاجز من عواجز وعجزت كنصر وكرم عجوزا بالضم، صارت عجوزا، والتعجيز التثبيط، ومعجزة النبي - صلى الله عليه وسلم - ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة وقوله تعالى (معاجزين) أي يعاجزون الأنبياء وأولياءهم: "يقاتلونهم ويمانعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله تعالى، أو معاندين مسابقين أو ظانين أنهم يعجزوننا[4]) ، ويبدو أن هذا العالم دقق في اللفظ، فانطلق من العام إلى الخاص؛ إذ أتى بالجذر اللغوي وحدد معناه، ثم انتقل إلى تعداد أغلب الدلالات السياقية لهذا المفهوم، وكشف بذلك عن التطور اللآلالي الذي أصاب هذا اللفظ، وكشف أيضا عن طواعيته وليونته من خلال هذه الاستعمالات المتعددة ليصل إلى لفظ معجزة فعرّفه بأنه ما أعجز به الخصم عند التحدي، وينتقل بعدها إلى اللص القرآني ليقف على دلالته القرآنية، فالتقى بذلك مع ابن منظور في أن اللفظ يعني التثبيط والفوت والسبق كما وقفا كلاهما عند قوله تعالى (معاجزين).

وعالج المعجم الوسيط هذه الوحدة المعجمية بادئا بالدلالة الحسية "عجزت المرأة عجوزا: كبرت وأسنت. وعجزت عن الشيء عجزا وعجزانا: ضعف ولم يقدر عليه. ويقال: عجز فلان: لم يكن حازما.. وأعجز فلان: سبق فلم يدرك، وأعجز الشيء فلانا: فاته ولم يدركه. ويقال: أعجزه فلان، وأعجزه: صيره عاجزا. وأعجزه فلانا: وجده عاجزا، وعاجز فلان: ذهب فلم يوصل إليه ولم يقدر عليه. يقال طلبته فعاجز: سبق فلم

يدرك... والمعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبي تأييدا لنبوته، والمعجزة: ما يعجز البشر أن يأتوا بمثله"[5].

وغطى هذا المعجم هذا اللفظ بكل جوانبه الدلالية وأنواعها الحسية والمعنوية المجردة، والمعجمية والسياقية، ليقف في الأخير عند الدلالة الاصطلاحية الدينية، وبذلك شمل كل معاني اللفظ.

ويقول الإمام الرازي في هذه الكلمة: (أعجزه) الشيء فاته، و(عجزه تعجيزا) ثبطه أو نسبه إلى العجز، و(المعجزة) واحدة و(معجزات) الأنبياء عليهم السلام، وهي غير المعجزة بفتح الجيم وكسرها وتعني عدم القدرة، و(العجز) أي الضعف باب ضرب، و(عجزت) من باب طرب[6] (".. وفي المحيط عرف الإعجاز كلاما: أن يؤدى المعنى بأبلغ أسلوب، الارتفاع عن مدى قدرة البشر.

تأتي مادة (ع ج ز) في لغة العرب لمعنيين أخذ الإعجاز والمعجزة من أحدهما، وهو: الضعف والعجز، تقول عجز عن الشيء يعجز عجزا فهو عاجز إذا ضعف.. وتقول: أعجزني فلان إذ عجزت عن طلبه وإدراكه، ومنه قوله تعالى عن لسان الجن: (وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِے ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا)[7]، قوله تعالى: (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِے ٱلْأَرْضِ وَلَا فِے ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)[8]، (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِے ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)[9] .. يقول ابن منظور: ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، والمعجزة: واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام الدالة على صدقهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بها.

تعريف الإعجاز اصطلاحاً: وفي الاصطلاح: أمر خارق العادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة. وتعريف الإعجاز يشمل أوجه الإعجاز القرآني كلها والتي منها الإعجاز العلمي.. والإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم والسنة النبوية بحقيقة أو حقائق أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - [10].

2. تعريف المعجزة: هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة. يظهر على يد مدعي النبوة موافقا لدعواه.

3. شروط المعجزة:

1- أن تكون المعجزة خارقة للعادة غير ما اعتاد عليه الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية.

2 -أن تكون المعجزة مقرونة بالتحدي للمكذبين أو الشاكين.

3-أن تكون المعجزة سالمة عن المعارضة، فمتى أمكن أن يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله، بطل أن تكون معجزة.

4.الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر: قد يكرم الله تعالى بعض أوليائه من المتقين الأبرار بأمر خارق يجريه له، ويسمى ذلك: الكرامة، وثمة فرق شاسع بين المعجزة والكرامة ، لأن الكرامة لا يدعي صاحبها النبوة، وإنما تظهر على يده لصدقه في إتباع النبي. لأن هؤلاء الأبرار ما كانت تقع لهم هذه الخوارق لولا اعتصامهم بالاتباع الحق للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهذا يبين لنا أن شرط الكرامة للولي صدق الاتباع للنبي - صلى الله عليه وسلم - لكن ليس من شرطه العصمة ، فان الولي قد يقع في المعصية، أما الأنبياء فقد عصمهم الله تعالى.

أما السحر فهو أبعد شيء عن المعجزة أو الكرامة، وان كان قد يقع فيه غرابة وعجائب، لكنه يفترق عن المعجزة والكرامة من أوجه كثيرة تظهر في شخص الساحر وفي عمل السحر.

مثل الإخبار عن المغيبات، والقرآن الكريم.

وقد جرت سنة الله تعالى كما قضت حكمته أن يجعل معجزة كل نبي مشاكلة لما يتقن قومه ويتفوقون فيه. ولما كان الغرب قوم بيان ولسان وبلاغة، كانت معجزة النبي - صلى الله عليه وسلم - الكبرى هي: القرآن الكريم.

ثانيا. تحدي القرآن للعرب وبيان عجزهم:

1 - لقد تحدى الله العرب -وهم أهل الفصاحة- بل العالم بالقرآن كله على رؤوس الأشهاد في كل جيل بأن يأتوا بمثله، فقال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۖ بَل لَّا يُؤْمِنُونَۖ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَۖ)[11] .

وقال تعالى: (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٖ ظَهِيرٗا)[12]. فعجزوا عن الإتيان بمثله

2 ولما كبلهم العجز عن هذا، فلم يفعلوا ما تحداهم، فجاءهم بتخفيف التحدي، فتحداهم بعشر سور، فقال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَۖ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَۖ)[13] .

3 - ثم أرخى لهم حبل التحدي ، ووسع لهم غاية التوسعة فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، أي سورة ولو من قصار السور، فقال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٖ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَۖ)[14] (يونس:]38.

يذكر الأستاذ محمود بن عبد العزيز الفداغ في كتاب (الجداول الجامعة في العلوم النافعة) أن الإعجاز إثبات العجز، والعجز ضد القدرة وهو القصور عن فعل الشيء وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز، والمعجزة امر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة.. وتكلم عن شروطها وأنواعها فذكر إنها نوعان حسية كمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- وعقلية كالقرآن الكريم"[15].

ورغم قرب هذا المصطلح (المعجزة والإعجاز) الدال على الأمر الخارق المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة[16]، إلى الذهن إلا أن المتتبع للمصطلح القرآني أو النبوي لا يجده على هذه الشاكلة وما وجد في مادة (عجز) في الكتاب والسنة لا تذكر ما يدل على مثل هذا المصطلح إلا بألفاظ أخرى لها نفس الدلالة مثل (الآية البينة البرهان السلطان) كما في سور الأنعام والإسراء وهود وإبراهيم والقصص والرحمن والبيّنة وغيرها.

كما وأنك لا تجد مصطلح (إعجاز) في كتب التفسير وعلوم القرآن إلا في مواضع معدودة وهذا لعمري لا يمنع من القول بأن المعنى المراد من التعريف الآنف الذكر كان يؤخذ من مصطلحات أخرى كانت متداولة عند العرب في وقت التنزيل وما بعده إلى أن أثرت اللغات واللهجات الأخرى على سجية العرب في الكلام واللسان.

أما أهل الأصول والعقائد والبلاغة فإنهم أفاضوا في استعمال هذا المصطلح أكثر من غيرهم كما في الموافقات للشاطبي والعقيدة الطحاوية ودلائل الإعجاز للجرجاني يقول الأستاذ نعيم الحمصي في كتابه (فكرة إعجاز القرآن) في الصفحة 45 ما نصه: (ولا ريب أن فكرة إعجاز القرآن كانت من أقوى البواعث على نشأة علم البلاغة إن لم تكن أقواها جميعا).

وعن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة نقرأ هذه الأسطر:

إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته، فهي ظاهرة في نظمه، وفى إخباره عن الأولين، وفى إنبائه بحوادث المستقبل، وحكم التشريع وغيرها، ولقد شاع مصطلح الإعجاز العلمي في عصرنا ،للدلالة على أوجه إعجاز القرآن والسنة التي كشفت عنها العلوم الكونية ونظرا لجدة البحث في حقل الإعجاز العلمي في القرآن - بالنسبة لغيره من حقول الدراسات القرآنية- فسوف نقدم في هذا البحث تأصيلا لهذا العلم بغية إعانة المشتغلين في هذا الحقل على ارتياد آفاقه . ونبدأ بتعريف الإعجاز . الإعجاز لغة : مشتق من العجز .

والعجز : الضعف أو عدم القدرة، وهو مصدر أعجز بمعنى الفوت والسبق[17] .

والمعجزة في اصـــطلاح العلمـاء : أمر خـارق للعـادة، مقرون بـالتحدي، ســـالم من المعارضة[18] .

وإعجاز القرآن : يقصـــد به إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله. أي نســـبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الإتيان بمثله .ووصف الإعجاز هنا بأنه علمي نسبة إلى العلم . والعلم هو إدراك الأشياء على حقائقها أو هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافا تاما[19]، والمقصود بالعلم في هذا المقام : العلم التجريبي .

أمـا الإعجـاز العلمي فهو إخبار القرآن الكريم أو الســـنة النبوية المطهرة بحقيقة أثبتها العلم التجريبي التطبيقي اليقيني المثبت والمتحقق واقعا ومشاهدة الذي لا يعتريه التبديل والتغيير بمرور الزمن وثبت عدم إمكـانيـة إدراكهـا بـالوســـائـل البشـــريـة في زمن التنزيل[20]. وبكلام أوضـــح ما ســـبق القرآن الكريم به من الإخبار عن أمور وظواهر وحالات علمية على اختلاف أشـكالها وصـورها منذ تنزله المبارك واكتشـفها إنســان التطور والتقدم العلمي والتقني والرقمي والمعلوماتي والحاسوبي في القرون الأخيرة.

وعليه فإن الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم أو السـنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوســائل البشــرية في زمن الرســول مما يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه سبحانه وتعالى.

ثالثا ــ اتجاهات الدارسين في بيان إعجاز القرآن : لقد اهتم الدارسون العرب بالقرآن الكريم وبدراسته وبيان إعجازه، ووضعوا لذلك دراسات ومؤلفات تكشف عن نظرتهم إلى الموضــوع، والتي قد تصــل إلى حد التباين لتفســير الإعجاز الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالتحدي والمعارضة "بمثل القرآن، ثم بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس إلا النظم والأسـلوب، وهم أهل الله ولن تضـيف أسـاطيرهم وعلومهم أن تســعها عشــر ســور. ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع"[21] . وقد ذهب العلمـاء في بيـان الإعجـاز مـذاهب واتجـاهـات، وكل له من الحجج والبراهين ما يقوي اتجاهه، ويضعف الاتجاهات الأخرى.

1- لاتجاه القائل بالصـرفة: ولعل أول من قال من العلماء بالصـرفة إبراهيم بن سـيار النظام، حيث ذهب إلى أن الله صــرف الناس عن معارضــة القرآن الكريم ولم يمنحهم القوة والقدرة والاستطاعة لمثل هذا العمل، فقدرة الإنسان محدودة، وقدرة الله لا حدود لهـا. يقول النظام "إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كســـائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام، والعرب إنما لم يعارضـــوه؛ لأن الله صـــرفهم عن ذلك وسلب علومهم به"[22]. ويبدو أن النظام قصد إلى الاعتراف بالإعجاز والبرهنة عليه،

وقدم لذلك تعليلا، إلا أن الكثير من العلماء لم يقبلوا هذا التعليل ورفضوه، وقدموا الحجج على بطلان هذا الرأي.

وقف الرافعي عند هذه القضية فعالجها معالجة تجمع بين العلمية والتأثر العاطفي، قال عن النظام "فذهب شيطان المتكلمين أبو إسحاق إبراهيم النظام إلى أن الإعجاز كان لصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقا للمادة. قلنا وكأنه من هذا القبيل هو

المعجزة لا القرآن"[23]. وقال في موضع آخر من كتابه هذا "غير أن النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولسن وحسن تصرف"[24] . وينبئ مثل هذا الكلام عن موقف سبقي من الرجل، ويعكس مناقشة عاطفية قبل أن تكون علمية، فالنظام يعترف بالإعجاز، فلماذا ينعت بالشيطان؟ خاصة وأن الرافعي يرتفع في تحليله لهذا الرأي إلى مرتبه أعلى، إذ قال: "جاء رأيه الذي علمت في مذهب الصرفة دون قدره بل دون علمه، بل دون لسانه، وهو عندنا رأي لو قال به صبية المكاتب، وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا.

وإلا فإن من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه، وهو بعد قادر عليه مقرن له، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان إلا كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة"[25].

ولم يكن الرافعي وحده الذي أبطل مذهب الصرفة، بل تبعه في ذلك بعض الدارسين، فعبد العزيز عبد المعطي عرفة قدم ستة أسباب لفساد القول بالصرفة[26]. وأتى نور الدين عنتر[27] بدلائل على بطلان هذا المذهب قائمة من الدلائل القرآنية، والوقائع التاريخية والموازنات الحقيقية، كدلالة القرآن وشهادة العرب بروعة بيان القرآن وإعجابهم وتحيرهم من فصاحته وبيانه.

لقد أجمعت هذه الآراء على رفض الصرفة كونها سببا من أسباب الإعجاز، ويبدو هذا الموقف وجيها، إلا أنه لا يلغي الأمر جملة وتفصيلا، فقد تكون الصرفة سببا من الأسباب، ويصبح مبدأ الصرفة واردا عند المؤمن بالله والمعترف بقدرة الله الواسعة، وبعجز الإنسان عن رفع التحدي والإتيان بمثل القرآن.

وذهب الباحث سليمان عشراتي مذهباً مميزاً ركز فيه على أدبية الخطاب القرآني فقال في هذا الشأن: "بيد ن هذه النظرة لا تصمد متى ما نظرنا إليها بعين الواقع التاريخي

الذي لابس التنزيل، فلقد دأب الخطاب القرآني على الاعتداد بأدبية آياته المحكمات، ودأب أيضا على تحدي أهل البيان أن يجاوروه فيها، فما فعلوا، قصورا عن اقتحام أسوار أدبية لا قبل لهم بها، في كل ما مارسوه من أجناس قولية وفنون كلامية، والقول بالصرفة، علة للإعجاز، يجعل أدبية القرآن أمرا تعليميا مدركا، وفي مكنة الممارسات الإنشائية في حقل الإبداع.."[28] .

2-الاتجاه القائل : القرآن معجزة ببلاغته: اهتم رجال هذا الاتجاه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم لاعتقادهم أن البلاغة القرآنية هي أساس الإعجاز. فقد درس ابن قتيبة الصور البيانية في القرآن الكريم، وقال بالتفاوت بين قصائد الشاعر الواحد، وبالتفاوت بين الشعراء، غير أن القرآن غير متفاوت الإعجاز، وعلل هذا الإعجاز عن طريق البديع، وقد ألم برأيه هذا، وبطريقته هذه في الدراسة في كتابه تأويل مشكل القرآن، فبلاغة القرآن تعتمد على دقة التعبير والإجادة في الوصف بألفاظ قليلة وتوسع في الدلالة. "قال عن القرآن وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه"[29] .

ويعد هذا المبدأ مبدأ مهما في الدراسة والتحليل، ويرى ابن قتيبة أنه يمكن إدراك إعجاز بلاغة القرآن بكثرة المدارسة. قال "وإنما يعرف فضل من كثر نظره، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات"[30] . وحدد هذه الخصائص البلاغية للغة العربية في موضع آخر في كتابه، فقال عن العرب "فلهم المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص"[31] . فالقرآن الكريم معجزة لأنه أجاد استعمال خصائص اللغة العربية ووصل بها إلى القمة التي تدرك من طرف البشر، على الرغم من تمتع العرب بحاسة بلاغية تجعلهم يميزون بين كلام الله وكلام البشر، إلا أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن.

واتبع الرماني ابن قتيبة في القول ببلاغة القرآن فخص الموضوع برسالة عنوانها النكت في إعجاز القرآن[32]. وذهب إلى أن البلاغة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأعلى، الأدنى، وما هو وسط بين الأعلى والأدنى، وشرح كل طبقة على حدة، ورأى أن أعلى طبقة هي المعجز، وهي بلاغة القرآن، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء، ثم حصر البلاغة في عشرة أقسام وهي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل

والتجانس، والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. ثم فسر كل قسم مستشهدا بالآيات القرآنية الكريمة.

"وواضح هنا، أن التصور البلاغي لأدبية الإعجاز، لم يعد يتقدم الزمن وذهاب الفصاحة، يهمه تأكيد النسبة السننية بين الخطابين القرآني والأعرابي، فالملكة اللغوية التي كان من شأنها أن تعين على إدراك المجانسة البيانية في الخطابين، واستكشاف المفاضلة النوعية في أدبيتهما، إن هذه الملكة التمييزية لم تعد من حظ الخاصة من أهل العلم والثقافة، ولذا باتت التقريرات الوضعية، المبنية على الافتراض والتسويغ هي وسيلة أولئك العلماء في تثبيت الحقائق وإرساء الثوابت"[33].

لقد أوجد هذا الاتجاه أتباعا زكوه بأفكار ودراسات قيمة في سبيل الكشف عن بلاغة القرآن وعن إعجازها كدراسة أبي هلال العسكري في الصناعتين التي جاءت لتكشف عن التباين بين بلاغة النص المقدس وبلاغة النص البشري، فالقرآن الكريم معجز "بما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها"[34].

ويشترط العسكري لمعرفة إعجاز القرآن البلاغي، معرفة البلاغة العربية وتعلمها حتى يستطيع المرء أن يميز بين مراتب الكلام، ولهذا وضع كتابه ليذلل به تلك الصعاب. قال: "فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع علم البلاغة من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة.. فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهدار"[35].

وبهذا يجعل معرفة البلاغة سببا في إدراك إعجاز القرآن والوصول إلى خصائصه ومميزاته، للوقوف على حدود النص القرآني وتجلياته، فهو "يرى أن الكشف عن وجوه البديع وصور البيان وسيلة لإدراك حسن النظم والتأليف، أي أنه يريد أن يتعلم الناس البلاغة ليتكون لديهم الذوق والفهم المسعفان على إدراك الإعجاز"[36].

وتعد دراسة العسكري دراسة تأصيلية منظمة ومبوبة تبويبا حسنا اعتمدت على مصادر النقد الأدبي عند العرب، وقد أشار إحسان عباس إلى بعضها[37] .

وتعد مساهمة ابن سنان الخفاجي مساهمة جادة في سبيل الوقوف عند الجانب البلاغي لإعجاز القرآن، وقد أثرت هذه الدراسة التجارب السابقة، وقدمت إضافات نوعية

بتكامل الأدوات الإجرائية التي استطاعت أن تكشف عن جوانب، منها ما تعلق بالعلوم الأدبية أو ما تعلق بالعلوم الشـرعية، فيما به كان معجزا من حيث قدرة النص القرآني على خرق العادة بفصاحته، ومن هنا راح الرجل يركز الحديث على البلاغة والفصاحة والإعجاز حيث وظفت هذه المفاهيم كأدوات مهمة لفك استغلاق النص وتعليل الظاهرة القرآنية. وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقا.

3- الاتجاه القائل "القرآن معجز بنظمه": لعل الجاحظ أول من قال إن النظم أسـاس الإعجاز، وقد ألف كتابا في هذا الموضـوع إلا أنه يعد من الكتب المفقودة. ثم جاء بعده الخطابي[38] ليدلي بدلوه في هذا الموضـوع الذي قصـر إعجاز القرآن في نظمه، فقد جمع القرآن أفصح الألفاظ في أحسن نلوم التأليف مضمنا أصح المعاني وعلل عجز العلماء السابقين في الوقوف على إعجاز القرآن، بأنهم احتكموا إلى أذواقهم وليس إلى الرأي والمنطق ، وانطلاقا من هذه الرأي، قسـم هذا الدارس الكلام إلى ثلاثة أقسـام: الرصـين الجزل، الفصـيح القريب السـهل، الجائر المطلق المرسـل، وذهب إلى هذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، فالأول أعلاها والثاني أوسطها، والثالث أدناها وأقربها. وقال الخطابي بالتفاوت في القرآن الكريم؛ ذلك أن هذا الكتاب السماوي قد أخذ من كل قسـم من هذه الأقسـام، إلا أن الخطابي قد فضـل القسـم الأول، ولكن هذا التفضـيل لا يتماشى والبلاغة، لأن النص قد يكون بليغا على الرغم من أنه من القسم الثالث.

واستقرأ الباقلاني أغلب الدراسات التي سبقته في مؤلفه "إعجاز القرآن"[39] ليثري هذا الاتجاه، فقد اختار هذا الباحث النظم لإثبات الإعجاز، وقال بعدم التفاوت في القرآن الكريم بخلاف الأدب. وليس انعدام التفاوت وحده الدال على إعجاز القرآن، بل هناك أمران آخران: أولهما: الطول الذي اسـتوعبه ذلك النظم دون تفاوت. وثانيهما أن هذا النظم قد ورد على غير المعهود من نظم الكلام جميعه عند العرب. وعرض نماذج من نثر البلغاء وشعر الشعراء لإدراك التفاوت. وبين أن ما استأثر بتفصيل النقاد في الشعر لا يبلغ شـيئا بجانب بلاغة القرآن؛ ولذلك درس قصـيدة لامرئ القيس، وأخرى للبحتري، ثم سورة من القرآن الكريم ليفصح عن رأيه السابق الذكر. وهذا الذي ميزه عن غيره من الدارسين، فقد وازن بين المعجز من كلام الخالق، وبين الرائع من كلام المخلوق. وقد كان معجبا بكل كلمة ومعنى وأسلوب في القرآن وقف عنده، ونعت ذلك بنعوت المفاضلة دون الإشارة إلى مواطن الفصاحة ولا إلى مواطن الروعة والجمال.

واهتم القاضـي عبد الجبار (ت 415هـ) بهذه القضـية، وأفرد لها جزءا في كتابه المغني[40] ؛ فقد رأى هذا الباحث أن الكلام الفصيح هو ما جزل لفظه وحسن معناه، ثم

إن القرآن لم ينفرد بأسلوب خاص؛ فرأى القاضي عبد الجبار أن ليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص؛ لأن الخطيب عند العرب قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة. وقد يكون النظم واحدا وتقع المزية في الفصاحة. ومن هنا انطلق يقول إن القرآن انفرد بفصاحة تقوم على جزالة اللفظ وحسن المعنى، وإذا جاء هذا في نظم لم يسبق إليه يزداد الكلام الفصيح فصاحة واعتنى هذا الباحث بالنظم عناية كبيرة، ورأى أنه المعوّل عليه في إقامة ميزان الكلام، وربط هذا المفهوم باللفظ والمعنى وذهب إلى أن اللفظة تخضع إلى ثلاث حالات:

1- مفهومها في ذاتها.

2- مفهومها حين تتداول عليها حركات الإعراب.

3 - مفهومها حين تأخذ مكانا خاصا في الكلام، فتتقدم أو تتأخر، ومن هنا أكّد على أهمية النظم في بلاغة الكلام وفصاحته، وربط بينه وبين هذه المفهومات الثلاثة.

وذهب إلى أن المعجزة القرآنية امتداد لما انتهى إليه جهد العرب من البلاغة، وليس إعجاز القرآن أنه جاء بنظم لم تجر العادة بمثله.

وبذلك يكون قد كشف عن توجه جديد في دراسة النظم في القرآن الكريم، كاشفا عن خصائص الإعجاز فيه القائمة على فصاحة اللفظ وحسن المعنى.

وأولى عبد القاهر الجرجاني هذه المسألة أهمية كبيرة من خلال مؤلفاته (الرسالة الشافية، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة). وذهب[41] إلى أن لا ميزة للمفردات في حد ذاتها؛ لأن الناس تواضعت عليها هكذا، وإنما ميزتها حين تضم إلى أخواتها من المفردات. وقد شبه النظم بالتأليف والصياغة والبناء والوشي.

ورأى أن أثناء التأليف يسبق المعنى اللفظ، على عكس القراءة أو السماع حيث يكون اللفظ هو السابق. وأنزل هذا الدارس الكلام ثلاثة منازل:

1- لفظ استقل بجماله واستغنى بحسنه دون أن يكون للنظم حساب فيه.

2 - ونظم اعتمد على ترتيب المعاني وتأخي الأفكار دون أن يسانده التأنق في اللفظ.

3 - وكلام حوى الحسن من طرفيه، فجمع إلى جمال اللفظ وإشراف العبارة تساوق المعنى وتلاحم الفكرة. وهذا الأخير هو الذي يبحث عنه ويطلب التفاضل فيه بين البلغاء، ومن جهته يكون الإعجاز. وذهب إلى أن التفاضل يكون في الكلام الذي يقبل التحرير أو التبديل، وليس في الكلام الذي له مدلول واحد.

ويبدو أن الجرجاني يفصل بين صورتين من صور الحقائق الفنية، فهناك ضحلة هزيلة تأخذ صور فنية غنية كلما رجعت إليها اكتشفت شيئا جديدا، وصور كل ما فيها بنظرة واحدة.

الخاتمـــة:

ومما تقدم نخلص إلى أن الجرجاني ذهب إلى أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه وتأليفه، والنظم بالنسبة إليه هو توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم. كما قال بالتفاوت في النظم عند الأدباء في "الرسالة الشافية" ورأى في النوابغ والمتقدمين أن ما أتوا به لا يعد معجزا، وإنما المعجز ما غرف أنه فوق قوى البشر وقدرهم، وضرب المثل بالجاحظ الذي رأى في ما أتى به غير معجز. وهذا هو الفرق بين النبي والعبقري، ويبدو أن هذا الاتجاه قد لقي رواجا وانتشارا، لأنه يحقق الإعجاز في كل السور والآيات، بينما مظاهر الإعجاز الأخرى لا تتحقق في كل القرآن الكريم.

الهوامـــــــــش :

(1) سورة النور ، من الآية 34.
(2) سورة الحج، من الآية 49
(3) لسان العرف، ط1، 236/7-237
(4) القاموس المحيط، 180/2.
(5) المعجم الوسيط، 591/1.
(6) مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ص 413-414 بتصرف.
(7) سورة الجن، الآية 12.
(8) سورة العنكبوت، الآية 21.
(9) سورة الشورى، الآية 29.
(10) معجم الألفاظ الكونية في القرآن والسنة، إعداد الشيخ إسماعيل القريشي، مجلة الإعجاز، العدد الثالث، ربيع الثاني، 1418هـ، ص 60-61.
(11) سورة الطور، الآية 31-32.
(12) سورة الإسراء، الآية 88.
(13) سورة هود، الآيتان 13-14.
(14) سورة هود، الآية 38.
(15) هذا الحديث يقصد به أن تفسير القرآن الكريم يحتج إلى جهد عظيم، يراجع فتح الباري.
(16) الجداول الجامعة في العلوم النافعة ، محمود بن عبد العزيز الفداغ، ص 144-145.
(17) ينظر : لسان العرب لابن منظور مادة (عجز)، 370/ 5 . والمفردات للراغب الأصفهانى.
(18) ينظر: تفسير القرطبى 1/96 ، وفتح البارى 6/581
(19) راجع الراغب الأصفهانى : المفردات ص 343، والشوكانى : إرشاد الفحول، ص 4.
(20) تفسير القرطبي وفتح الباري ورسائل إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، ص75، وانظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تاريخه وضوابطه عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص 12.
(21) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية 139 مكتبة رحال الجزائر. 169— 170.
(22) نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز، الرازي مطبعة الآداب، 1317.
(23) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .144.
(24) المرجع نفسه ، 45.
(25) نفسه .145
(26) قضية الإعجاز القرآني 72 وما بعدها.
(27) ينظر القرآن والدراسات الأدبية 155 وما بعدها.
(28) الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي 17 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998.
(29) تأويل مشكل القرآن 4 تح أحمد صقر طبع الحلبي.
(30) المصدر نفسه، ص 7.
(31) نفسه، ص 16.
(32) الرماني النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز.
(33) الخطاب القرآني، ص 23.

(34) أبو هلال العسكري 1952 الصناعتين الكتابة والشعر I ط II تح علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم طبع البابي الحلبي.
(35) المصدر نفسه، ص 3، .4
(36) إحسان عباس 1981 تاريخ النقد الأدبي عند العرب 355ط III دار الثقافة، بيروت.
(37) المرجع نفسه، ص 356- 357.
(38) بيان إعجاز القرآن دار المعارف مصر، 1916.
(39) أبو بكر الباقلاني إعجاز القرآن دار الجيل بيروت.
(40) القاضي عبد الجبار 1318 المغني في أبواب التوحيد والعدل.. 16: 197 تح أمين الخولي. طبع دار الكتب.
(41) دلائل الإعجاز، تح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص40 وما بعدها، 1978.